جامعة الأزهر
حولية كلية البنات الإسلامية بأسيوط

تنوع أساليب إثبات الحقوق

في خطبة تولية الصديق - رضي اللّه عنه- الخلافة

دراسة في ضوء نظرية النظم

إعداد

د / نجلاء محمود حسين أحمد

مدرس البلاغة والنقد

في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

ملخص البحث باللغة العربية

تنوع أساليب إثبات الحقوق في خطبة تولية الصديق – رضي الله عنه– الخلافة دراسة في ضوء نظرية النظم

نجلاء محمود حسين أحمد

البلاغة والنقد، كلية البنات الإسلامية بأسيوط، جامعة الأزهر، مصر

(البريد الإلكتروني): naglaamahmoud.8719@azhar.edu.eg

ملخص:

يهدف البحث إلى دراسة خطبة تولية الصديق رضي الله عنه للخلافة لما لها من خصوصية إثبات الحقوق عقدا مبرمًا بينه وبين رعيته، ومن ثم قام البحث في تقسيمه على تلك الحقوق المثبتة، وكذلك خصوصية كل حق في أساليب إثباته، فقد اشتمل هذا البحث على ثلاثة مباحث يسبقها مقدمة وتمهيد، ويعقبها خاتمة وفهرس لمصادر البحث وقد جاءت المباحث كالآتي : أساليب إثبات حقوق الراعي و أساليب إثبات حقوق الرعية وأساليب إثبات حقوق الله، وخلص البحث إلى دقة التراكيب، ووحدة بناء الخطبة عند الصديق رضي الله عنه بما حقق له غرضه.

الكلمات المفتاحية: تنوع، أساليب، إثبات ، الحقوق، خطبة، الصديق.

Diversifying Methods of Stipulating Rights in Abu Bakr Aṣ-Ṣeddīq's Speech upon Assuming Caliphate: A Study in the Light of the Theory of Naẓm (Rhetorical Structure)

Dr. Naglaa Mahmoud Hussain Ahmad, Department of Islamic Faculty of Women, Criticism and Rhetoric, Assuit, Al-Azhar University
naglaamahmoud.8719@azhar.edu.eg

Abstract

The present research paper aims to study the speech of Abu Bakr Aṣ-Ṣeddīq, may Allah be pleased with him, on assuming the Caliphate because it has the characteristic of concluding a contract that stipulates the involved parties' rights—his and his citizens'. Therefore, the study is based on these stipulated rights, and on the special method used for stipulating each of them. The present research paper consists of an introduction, a preface, three sections, and a conclusion. The first section introduces the methods of stipulating the rights of the ruler. The second section explains the methods of stipulating the rights of the citizens. The third section illustrates the methods of stipulating the rights of Allah. The study concludes with the fact that Aṣ-Ṣeddīq's speech is characterized by accuracy of structure and unity of topic.

Key words: **diversify – methods — stipulate – rights – speech – Abu Bakr As-Ṣeddīq**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وأشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد :

فإن آفة الدراسات التطبيقية في الجنس الأدبي هي العموم ، ومن ثم فلا تصل إلى نتائج يقينية لاتساع مادتها اتساعًا يمنع من الإحاطة بها تحليلاً واستنتاجًا..

وبدهي أنك تجد داخل الأجناس الأدبية الواحدة صورًا متنوعة لكل منها خصوصيات للمتكلم ، بل إن الصورة الواحدة لتتنوع إلى خصوصيات أدق تبعًا لاختلاف الأحوال وتنوع السياقات ، حتى إنك لتجد للمتكلم الواحد خصوصيات في كل موقف يتبعها تنوع أساليب تتناسب معه.

ومن ثم فكلما كان المعنى المدروس أخص كانت الأساليب محددة ويقينية ، وبالتالي كانت الافتراضات والنتائج واضحة ، فيجب أن تكون الدراسات متعلقة بالمعاني الأخص.....

ومن هنا كان التخصيص في دراسة خطبة تولية الصديق – رضي الله عنه– من دون عموم في الخطابة باعتبار الذوات كالخلفاء أو الأنواع كالخطابة الدينية أو السياسية أو غيرها . تركيزًا للمعنى والأساليب المعبرة عنه ، فهي ليست كغيرها من الخطب الدينية أو السياسية أو خطب الجمعة والعيدين ، وإنما لها سمت خاص ؛ ففيها عقد يعلنه الخليفة بينه وبين رعيته

وخطة مستقبلية لسياسته معهم .

ولذلك كانت أساليبها كلها لإثبات الحقوق لإشاعة الطمأنينة بين الرعية من أول يوم فيعرف كل فرد ماله وما عليه .

وبلاغة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الأمور البينة الجلية ، " فالصديق كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه ، وكان أعلم الناس بموضع كلام الرجل من مروءته وشرفه "[1]

ولذا اخترت خطبة توليته رضي الله عنه فكان عنوان الدراسة (تنوع أساليب إثبات الحقوق في خطبة تولية الصديق – رضي الله عنه– الخلافة دراسة في ضوء نظرية النظم)

ويرجع سبب اختياري لهذا الموضوع إلى عدة أمور منها :

١ ـ كون خطبة الصديق رضي الله عنه أول خطبة تولية في الإسلام ، ومن ثم فهي تمثل منهجًا رئيسًا لما تلاها من خطب التولية .

٢ ـ خصوصية معانيها وأساليبها ؛ إذ إنها قائمة على معنى إثبات الحقوق وتأكيدها ، وليست كغيرها من الخطب الدينية أو السياسية ، ومن ثم تميزت عنها في بنائها البلاغي.

٣ ـ جدة الموضوع فلم يتعرض أحد لأساليب إثبات الحقوق في ضوء نظرية النظم ، لا في خطبة التولية ، ولا في تحليل الخطب عمومًا ، حيث كانت تدور الدراسات البلاغية حول أحد الأساليب البلاغية ، أو حول البلاغة

---

(١) عبقرية الصديق ص ١٣٩ ـ المؤلف عباس محمود العقاد ـ ط٦ سنة ٢٠٠٥ ـ شركة نهضة مصر للطباعة والنشر .

بوجه عام في الخطب عامة ، أما هذه الدراسة فخاصة في معناها ، خاصة في أسلوبها ، خاصة في منهجها .

٤ ـ فتح باب الدراسات المتخصصة داخل الجنس الأدبي الواحد، أو داخل المعنى الواحد .

أما عن منهجي في البحث :

فقد اتبعت المنهج التحليلي البياني – بمعناه عند الإمام – في ضوء نظرية النظم وفق الإجراءات التالية :

– النظر إلى تنوع التراكيب تبعًا للمعاني الخاصة وهي معاني النحو ... فنظرت في التراكيب والمفردات في ضوء نظرية الاحتمالات وما يمكن أن تؤديها من صور يتنوع بها المعنى ثم عرجت إلى وجه إيثار الصديق مفرداته وتراكيبه من حيث اتصالها بإثبات الحقوق التي عناها في خطبته .

– النظر إلى العلاقات بين أجزاء النظم : كلماته وجمله وكيف أنها تنسل انسلالا من أصل بنيت عليه الخطبة حتى تجعلها كالجملة الواحدة التي فصلت تلك الجملة وبينتها .

ولما كانت الخطبة قائمة على معنى رئيس من إثبات الحقوق فقد قام تقسيم البحث باعتبار صور تلك الحقوق ومن ثم فقد اشتمل هذا البحث على ثلاثة مباحث يسبقها مقدمة وتمهيد ، ويعقبها خاتمة وفهرس لمصادر البحث وقد جاء كالآتي :

المقدمة : : تكلمت فيها عن أهمية الموضوع وأسباب اختياري له ومنهج البحث فيه وموضوعاته ..

التمهيد : واشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بعنوان (**الخطيب والخطبة**)

تناولت فيه نسب سيدنا أبي بكر رضي الله عنه ، وتوليته الخلافة ، ووفاته . ثم تناولت الخطبة بذكر نصها ، ثم ذكر بعض المواقف من حياة الصديق رضي الله عنه ترتبط بالخطبة وموضوعها .

المطلب الثاني : بعنوان (**خصوصية خطب التولية**)

تناولت فيه تعريف الخطابة عمومًا، ثم ذكرت بعض الأسس التي كان يسير عليها الخطباء في خطبهم ، تم تناولت خصوصيات خطب التولية.

المطلب الثالث : بعنوان (**نظرية النظم بين الضابط والتطبيق**)

عرفت فيه بنظرية النظم عند الإمام عبد القاهر ، وكيف تم تطبيقها في الخطبة موضوع الدراسة.

المبحث الأول : بعنوان (**أساليب إثبات حقوق الراعي**)

تناولت فيه الأساليب التي جاءت لإثبات حقوق الراعي وهي: أساليب العموم ، ثم أساليب التأكيد ، ثم أساليب الأمر المبني على جملة الشرط.

المبحث الثاني : بعنوان (**أساليب إثبات حقوق الرعية**)

تناولت فيه الأساليب التي جاءت لإثبات حقوق الرعية وهي: أسلوب وضع الخبر موضع الإنشاء، وأسلوب التفصيل بعد الإجمال وعكسه ، وأسلوب المقابلة .

المبحث الثالث : بعنوان (أساليب إثبات حقوق اللّه)

بينت فيه أن هذا المبحث اشتمل على أسلوبين لإثبات حقوق الله وهما أسلوب القصر وأسلوب الأمر.

الخاتمة : وتناولت فيها نتائج البحث والتوصيات .

وأخيراً فهرس المصادر والمراجع .

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به.

التمهيد

١ـ الخطيب والخطبة

الخطيب هو أبو بكر الصّديق شيخ الْوَقار ومعدن الافتخار والمقدم على سَائِر الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار الْمُسَمّى بِعَبْد الله والملقب بعتيق.(١)

عبد الله بن أبي قُحَافَة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي(٢) من ولد تيم بن مرة – تيم قريش – يلتقي هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب ... كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ولقبه عتيق، لقب به لجمال وجهه رضي الله عنه، وقيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار، وسمي صدّيقاً لتصديقه خبر المسرى...

---

(١) تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق ص١٨ . المؤلف: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي الحنفي (المتوفى: ٧٣٩هـ) الناشر: مكتبة دار التراث – المدينة المنورة .

(٢) تهذيب التهذيب ج١٢ ص٤٣ . المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند . الطبعة: الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ . والأعلام ج٤ ص ١٠٢ . المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) الناشر: دار العلم للملايين . الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م .

كان طويلاً آدم خفيف العارضين يخضب بالحنّاء والكتم.(١)

كان أبو بكر رضي الله عنه من رؤساء قريش في الجاهلية محببًا فيهم مؤلفًا لهم في الجاهلية،.... كان إذا عمل شيئًا صدقته قريش، وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه، فلما جاء الإسلام سبق إليه، وأسلم من الصحابة بدعائه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة وهم : عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأسلم أبواه وولداه وولد ولده من الصحابة فجاء بالخمسة الذين أسلموا بدعائه إلى رسول الله فأسلموا وصلوا.(٢)

مبايعته بالخلافة :

تَمَّتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ – رضي اللَّه عنه– في سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ يَوْمَ الاثنين، يَوْمَ وَفَاةِ النَّبِيِّ – صلى اللَّه عليه وسلم–، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ صَبِيحَةَ يَوْمِ الثُّلَاثَاءَ، اجْتَمَعَ النَّاسُ في الْمَسْجِدِ، فَكَانَتِ الْبَيْعَةُ الْعَامَّةُ (٣)

---

(١) ينظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٣ ص٦٤ . المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ) المحقق: إحسان عباس . الناشر: دار صادر – بيروت . الجزء:٣ .

(٢) ينظر أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين ص ١٣ –١٤ . المؤلف: محمد رضا (المتوفى: ١٣٦٩هـ) المحقق: الشيخ خليل شيحا . الناشر: دار الكتاب العربي . الطبعة: ١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م .

(٣) اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية» ج٤ ص ٦٤٠ . المؤلف: موسى بن راشد العازمي . تقريظ: الدكتور محمد رواس قلعه جي، الشيخ

وكانت سنة ١١ هـ.[١]

فحارب المرتدين والممتنعين من دفع الزكاة. وافتتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق. واتفق له قواد أمناء كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبي عبيدة بن الجراح، والعلاء بن الحضرميّ، ويزيد بن أبي سفيان، والمثنى بن حارثة. وكان موصوفًا بالحلم والرأفة بالعامة، خطيبًا لسنًا، وشجاعًا بطلا. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر ونصف شهر [٢] .

وفاته :

وتوفي بالسل ليلة الثلاثاء، وقيل يوم الجمعة، لتسع ليالٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وسنه ثلاث وستون سنة ،وغسلته زوجته أسماء ابنة عميس، وصلى عليه عمر رضي الله عنهما، وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سرير عائشة رضي الله عنها، ... ودفن في حجرة عائشة ورأسه بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٣]

الخطبة :

بعد أن بايع الناس أبا بكر قام فتكلم فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،

عثمان الخميس . الناشر: المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، الكويت الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .

(١) الأعلام ج٤ ص١٠٢

(٢) السابق ج٤ ص١٠٢

(٣) ينظر: وفيات الأعيان ج٣ ص ٦٤ .

فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أزيح علته إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى آخذ مِنْهُ الْحق إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدْعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ . (١)

والناظر في خطبته رضي الله عنه يجدها تنم عن صفاته الخلقية التي اتصف بها "والتي اتفقت فيها أقوال واصفيه ، ودلائل أعماله في الجاهلية والإسلام"(٢)، فكان رضي الله عنه- على الجملة – مؤديًا للحقوق في أعلى صور التأدية إلى درجة الإحسان فمن ثم حرص في أول خطبة له عند توليته على ذلك في نحو من التواضع عظيم أبرزه في هضم نفسه في قوله رضي الله عنه : ولست بخيركم ..

ولعل ذلك مما اتفق عليه الناس فيه حيث كان " أليفًا ودودًا حسن

---

(١) ينظر: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ج٧ ص٥٩١-٥٩٢ ـ المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ) المحقق: عمر عبد السلام السلامي ـ الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ، والسيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) ج٤ ص ٤٩٣ـ المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: مصطفى عبد الواحد ـ الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت – لبنان ـ عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م .

(٢) عبقرية الصديق ص ٣٢ .

المعاشرة، وكان مطبوعًا على أفضل الصفات ، ومنها التواضع ولين الجانب، فلم يتعال على أحد قط في جاهليته ولا إسلامه، وكان في خلافته أظهر تواضعًا منه قبل ولايته الخلافة ، فإذا مدحه مادح قال: اللهم أنت أعلم مني بنفسي ، وإذا سقط منه خطام ناقته وهو راكب نزل منها ليأخذه ، ولم يأمر أحدًا بمناولته إياه" (١)

كما أنه لم يطلب الخلافة ولم يسع إليها لطلب جاه أو مال أو سلطان وهذا ما دل عليه قوله في خطبته : (وليت) فقد ولاه الناس من المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن يصعب حصرهم وعدهم عليهم من غير طلب لها ..

" كما كان الرجل صادق الطبع مستقيم الضمير لا يلتوي به عما يعلم أنه الحق عوج ولا سوء دخلة، وعرف باسم الصديق إذ عرف فيه الناس الصدق من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالإسلام ؛ لأنه كان يضمن المغارم والديات ، فيصدقونه ويعتمدون على وعده ، ويركنون إلى وفائه" (٢) فهو يرد الحقوق إلى أصحابها ومن ثم ظهر في خطبته تأكيد إثبات الحقوق لطمأنة القلوب إلى ثباته وقوته في تأديتها في قوله: (الضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق).

كما كان رضي الله عنه حريصًا على أداء حق الله ورسوله " لما ارتدت قبائل العرب إلا قيساً وثقيفاً ومنعوا الزكاة، فأشار الناس على أبي بكر رضي الله عنه بأخذ العرب بالصلاة ومسامحتهم في الزكاة فقال : والله لو

---

(١) السابق ص ٣٢ .

(٢) عبقرية الصديق ص ٧٧ .

منعوني عقالاً أو عناقاً مما كانوا يؤدون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على ذلك" [1] وهذا يدل على مدى حرصه على أداء حق الله في خطبته فيختم بها ويجعلها تطبيقًا عمليًّا لأداء بقية الحقوق .

(١) وفيات الاعيان ج٣ ص ٦٦ .

٢-خصوصية خطب التولية

الخطابة : هي كلامٌ يحاوَلُ به إقناعُ أصناف السامعين بصحَّة غَرَضٍ يقصِدُه المتكلِّم لفِعْلِه أو الانفعالِ به.(١)

فهي وإن كانت فنًّا من فنون الإنشاء،... بيد أنَّ صاحبها لما كان أشدَّ اعتمادًا على البَداهة والارتجال منه على الكتابة، تعيَّن أن يُذكَر لها من الضوابط والشروط ما لا يجري مثله في عموم صناعة الإنشاء، كما كان للشعر من الضوابط ما يختصُّ به عن الإنشاء، وإن كان هو في الأصل فنًّا من أفانينه .(٢)

وأكثر ما كانت الخطابة– في العصر الجاهلي – في التحريض على القتال، والتحكيم في الخصومات وإصلاح ذات البين، وفي المفاخرات والمنافرات والوصايا وغير ذلك .(٣)

فلما طلع الإسلام بشأنه الخطير اتسع مجال الخطابة، واشتدت البواعث على ركوب منابرها، ومن أهم هذه البواعث : الدعوة إلى هداية الإسلام، والتحريض على الوقوف في وجه خصومه بعزم وطيدٍ وإقدام حكيم،

---

(١) أصول الإنشاء والخطابة ص١١٨ـ المؤلف: محمد الطاهر بن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣ هـ) المحقق: ياسر بن حامد المطيري الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ .

(٢) السابق ص ١٣٩ .

(٣) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ج٢ ص ١٧ـ المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ) أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين ـ الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت .

ويضاف إلى هذا أنَّ من أسباب إجادتِها وإبداعها ما بَهَرهم به القرآن ومنطق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من بلاغة القول وروعة الأسلوب. (١)

وتنوعت الخطبة في زمنها فكان منها الطّوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستويًا في الجودة، ومتشاكلا في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان، والنّتف الجياد. وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، وإنما حظه التخليد في بطون الصحف. ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم إلى حفظها أسرع(٢)

ثم تنوعت الخطب بحسب غرضها .. فجاءت خطب التولية بسمت يميزها عن جميع الخطب ؛ لأنها كالعهد والعقد بين الراعي والرعية ومن ثم كان لها من الأساليب ما يتناسب مع إثبات الحقوق والواجبات . ولذا كانت خطب التولية تختلف في أساليبها عن خطب الجمعة والعيدين والوفود وغير ذلك من أنواع الخطب ، ولعل الناظر في خطب تولية الخلفاء يجد ذلك

(١) الخطابة عند العرب ص١٨٤ـ المؤلف: محمد الخضر حسين (المتوفى: ١٣٧٧ هـ) المحقق: ياسر بن حامد المطيري ـ الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ .

(٢) البيان والتبيين ج٢ ص٧ ـ المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ عام النشر: ١٤٢٣ هـ .

الاختلاف في اختيار الأساليب بينًا جليًا .[1]

والخطبة التي بين أيدينا يكثر فيها أسلوب العموم ؛ لأنها تكون لخطاب العامة فجاء النداء فيها بـ (أيها الناس) ؛ وذلك لأن الخليفة يكون حاكمًا للناس عامة لا يخص أهل مكان معين أو جنس معين ولا حتى يخص المسلمين دون غيرهم ؛ لأنه خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم الذي كانت رسالته للناس كافة .

كذلك العموم في الضمائر فلم يخص بها مخاطبا دون غيره ، كذلك في التعبير بالصفة والاكتفاء بها عن الموصوف، و كذلك شمول أساليب الظرفية والغاية في أجزاء الخطبة كلها.

كما نجد أسلوب التأكد وكان واجبًا لمراعاة حال المخاطبين ؛ لأن الحاضرين منهم المؤيد والمعارض ، الموافق والمتردد والمنكر للخلافة فيلزمهم الخليفة بالأمر بطريقة حاسمة جازمة لقطع الإنكار والتردد والشكوك.

كما نجد أسلوب الشرط وما فيه من دلالة اللزوم بين الشرط والجزاء مما يجعل الحق لازمًا في أعناقهم يجب تأديته .

كما نجد أسلوب الأمر وهو في دلالته الرئيسة على الوجوب يتناسب مع إثبات الحق والإلزام بتأديته .

ولما كانت خطبة التولية تحتاج إلى التوضيح نجد فيها التفصيل الذي يأتي بعد إجمال فيتضح به المعنى ويتأكد .

---

(١) ينظر: خطبة تولية سيدنا عمر بن الخطاب ج١ ص ٢١٢ وخطبة تولية سيدنا عثمان ج١ ص ٢٧١ . في جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة المؤلف: أحمد زكي صفوت . الناشر: المكتبة العلمية بيروت – لبنان .

كما نجد فيها أسلوب المقابلة وما لها من فضل إظهار المعاني بشكل أوضح للمتلقي ؛ فتكتمل الصورة لديه ؛ لأنها تزيد من تحسين الحسن وتقبيح القبيح بوجودهما في صورة متضادة .

كما يظهر أسلوب القصر لما فيه من التأكيد والمبالغة وتقرير الكلام في ذهن المتلقي .

والملاحظ أيضًا في خطب التولية أنها ليس فيها خيال ؛ لأنها تقرر واقعًا . وبهذا يتضح أن خطب التولية لها خصوصية في الأساليب ليست لغيرها .

٣ـ نظرية النظم بين الضابط والتطبيق

تقوم نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر على ركنين رئيسين وعمودين أساسين:

- مذهب يتصل بتنوع التراكيب تبعًا للمعاني الخاصة وهي معاني النحو .
- والآخر يتصل بالعلاقات بين أجزاء النظم كلماته وجمله .

فأما الأول فعبر عنه الإمام بقوله: " اعلم أنْ ليسَ" النظمُ إلا أن تضعَ كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيه علمُ النحو"، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجتْ فلا تزيغ عنها، وتحفَظَ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك ، فلا تُخِل بشيءٍ منها. وذلك أنَّا لا نَعلم شيئاً يبتغيهِ الناظمُ بنَظْمه غيرَ أنَ ينظرَ في وُجوهِ كل بابٍ وفُروقهِ، فينظر في" الخبرِ " إلى الوجوهِ التي تَراها في قولك: " زيدٌ منطلقٌ " و" زيدٌ يَنطلِقُ"، و" ينطلِقُ زيدٌ " و" منطلِقٌ زيدٌ"، و" زيدٌ المُنطلِقُ "و" المنطلِقُ زيدٌ " و" زيدٌ هوَ المنطلقُ"، وزيدٌ هو منطلِقٌ."

وفي " الشرطِ والجزاء " إلى الوجوه التي تَراها في قولك : " إنْ تَخْرُجْ أَخرجْ " و" إنْ خرجْتَ خرجْتُ " و" إن تخرجْ فأنا خارجٌ " و" أنا خارجٌ إن خرجتَ " و" أنا إنْ خرجْتَ خارجٌ" .

وفي" الحالِ " إلى الوجوهِ التي تَراه في قولك: " جاءني زيد مسرعًا"، وجاءني يسرع" ، و" جاءني وهو مسرع أو وهو يُسرع " و" جاءني قد أَسرَع " و" جاءني وقد أَسْرعَ ، فيعرفُ لكلٍّ من ذلك موضِعَه، ويجيءُ به حيثُ ينبغي له.

وينظرَ في "الحروف " التي تَشْتركُ في معنىً، ثم يَنفردُ كلٌّ واحدٍ منها

بخصوصيةٍ في ذلك المعنى، فيضع كلًّا من ذلك في خاصِّ معناهُ، نحْوَ أن يجيءَ بـ" ما " في نفي الحال، بـ" لا "إذا أراد نفي الاستقبال ، و بـ" إنْ " فيما يترجَّحُ بينَ أن يكونَ وأنْ لا يكون، و بـ" إذا "فيما عُلِمَ أنه كائنٌ.

وينظرَ في "الجملِ "التي تُسْرَدُ، فيعرفَ موْضعَ الفصلِ فيها مِن موضعِ الوَصْل، ثم يعرفَ فيما حقُّه الوصْلُ موضعَ" الواو "من موْضعِ" الفاء"، وموضعَ "الفاء " من موضعِ" ثُمَّ "، وموضعَ " أو " من موضعِ " أم"، وموضَعَ " لكنْ " من موضعِ " بل " .

ويتصرَّفَ في التّعريفِ والتَّنكيرِ، والتّقديمِ والتأخير، في الكلام كلِّه، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيصيب بكل من ذلك مكانَه، ويستعملَه على الصِّحة وعَلَى ما ينبغي له."[1]

والآخر ذكره الإمام في قوله : "واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلكُ، في توخِّي المعاني التي عرفتَ : أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجِملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَسارِه هناك. نَعم، وفي حالِ ما يُبْصر مكانَ ثالثٍ ورابعٍ يَضعُهما بَعْدَ الأَوَّلَيْن. وليس لِما شأْنهُ أن يجيءَ على هذا الوصفِ حَدٌّ يَحْصرُه، وقانونٌ يُحيطُ به، فإنه يجيءُ على وجوهٍ شتَّى،

---

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني ص ٨١ ، ٨٢ المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر . الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

وأنحاءَ مختلفةٍ."[1]

وقد تم تطبيق المذهبين في الخطبة ، من خلال تحليل أجزائها، فأما تنوع التراكيب تبعًا للمعاني الخاصة وهي معاني النحو فقد عالجه البحث في تعدد الاحتمالات للمفردات والتراكيب في موقعها أو بنيتها في الخطبة على نحو ما سترى إن شاء الله ..

أما الآخر الذي يتصل بالعلاقات بين أجزاء النظم : كلماته وجمله فقد ظهر في ذلك الانسجام والاتساق بين أجزاء الخطبة ، وكيف أنها انسلت من تركيب واحد حتى صارت بناء واحدًا، فكل جملة بل كل لفظة تتعلق بما قبلها ، وتطلب ما بعدها .

وهذا ظاهر من اتصال جميع أجزاء الخطبة وتعلقها بجملة (وليت عليكم) فكل كلمات الخطبة وجملها تدور في محورها وتتعلق بها ، فمنها انبثقت كل الحقوق والواجبات في الخطبة ، سواء كان حق الراعي أو حق الرعية أو حق الله تعالى كما سيتضح من خلال المباحث .

(١) السابق ص ٩٣ .

المبحث الأول

أساليب إثبات حقوق الراعي[1]

لما كانت خطبة التولية بيانًا للعقد والعهد بين الراعي والرعية ، وبيانًا لخطته المستقبلية ، اقتضى التناسب البلاغي أن تبنى على أساليب إثبات حق الراعي ابتداء لإبراز ما يلزمه للسير فيهم وما يعينه على تحمل الأمانة .

ومن ثم اقتضت بلاغة الخليفة أبي بكر رضي الله عنه أن يجعل خطبته بناء متواليًا على حقوق تنسل جميعها من توليته ولاية عامة على المخاطبين .

ومن ثم برزت أساليب رئيسة في إثبات حقه على رعيته بما يتناسب مع تلك الولاية العامة عليهم، وتأكيد حقوقه عليهم وإلزامهم بها في عقد لازم للطرفين كليهما ..

فظهرت أساليب العموم في الخطاب بما يتناسب مع عموم استخلافه ، ثم أساليب التأكيد لتنبيه المخاطبين على أهمية كلامه ليستمعوا له ، ويعملوا به ، ثم أساليب الأمر المبني على جملة الشرط بما يتلاءم مع لزوم طاعته ووجوب اتباعه مقرونة بهذا القيد الشرطي ليكون العقد فيما بينه وبينهم عقدًا ثنائيًّا من الطرفين قائمًا على الحقوق والواجبات .

---

(١) إنما بدأت بإثبات حقوق الراعي قبل إثبات حقوق الرعية ، أو حقوق الله تعالى؛ نظرا لبناء الخطبة وقيامها أولا على إثبات حقوق الراعي ثم حقوق الرعية ثم حقوق الله تعالى .

أولا : أساليب العموم

تدور مادة العموم حول الشمول والامتداد والتمام والكفاية

جاء في لسان العرب : عَمَّهُم الأَمرُ يَعُمُّهم عُموماً : شَمِلهم، يُقَالُ :عَمَّهُمْ بالعطيَّة . والعامّةُ : خِلَافُ الخاصَّة ... والعَمَمُ مِنَ الرِّجَالِ :الْكَافِي الَّذِي يَعُمُّهم بِالْخَيْرِ(١)

وهذا الضابط اللغوي للعموم يتناسب مع أساليبه البلاغية الواردة هنا حيث جاءت لتحقيق غرضين :

– استقصاء المخاطبين وشمول خطابه جميعهم على الحقيقة لا العرف .

– ثم امتداد معناه في الأجيال التالية إذ إنه بذلك يقرر أحكامًا تتصل بالحكم ممتدة فيمن يأتي بعده من الخلفاء إذ إن سنته رضي الله عنه فيهم مما يستن بها ويقتدى ....

ومن ثم فقد برز أسلوب العموم في أربعة صور تعبيرية :

أولها – أسماء الأجناس سواء في عموم المنادى بإيثار اسم الجنس : الناس في مستهل الخطبة وهذا من بديع الافتتاح وحسنه على ما سيأتي أو عموم جنس القومية في التحذير ..

ثانيها – عموم ضمير الخطاب .. في كل أجزاء الخطبة ليتناسق مع

---

(١) ينظر لسان العرب ج١٢ ص٤٢٥ وما بعدها المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

عموم المنادى على خلاف مقتضى الظاهر في الخطاب إذ أصل الخطاب أن يكون لمعين[1]

ثالثها – الاكتفاء بالوصف عن الموصوف للعموم والشمول .....

رابعهـــا – شـمول أسـاليب الغايـة والظرفيـة لكـل أجزائهـا وأبعاضها.....

الصورة الأولى : **إيثار اسم الجنس لعموم المنادى** : وهذا العموم نجده في قول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه : (أيها الناس) فهو في خطاب المؤمنين ممن كان وقت خطبته في المدينة فكان مقتضى الظاهر أن يناديهم بوصف الإيمان أو الإسلام ولكنه عدل إلى ندائهم بالناس فهذا العموم في النداء قد قصده ليدل على عموم ولايته لكل الناس ، فكان من الممكن أن يناديهم بالمؤمنين أو المسلمين ؛ لأن كل الموجودين كانوا مسلمين ، وكذلك لم ينادهم بقوله : أيها العرب، أو يا أهل المدينة ؛ لأنه لو قال شيئًا من ذلك لجعل خطبة ولايته خاصة بطائفة دون طائفة أو أهل مكان فقط ، وهذا لا يتناسب مع خطبة توليه خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لها خصوصية العموم مكانًا وأجناسًا ، فكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم عام في رسالته للناس كافة فكذلك خليفته عام في ولايته ، ومن هنا كان العموم

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ج٢ ص ١١ المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ) المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي . الناشر: دار الجيل – بيروت الطبعة: الثالثة .

.

أكثر تناسبًا لإثبات حق ولايته عليهم جميعًا .

وكانت دقته رضي الله عنه في إيثار لفظ الناس لما فيه من استلزام الشمول والعموم لأقصى الأطراف كلها ؛ لأنه من النوس والنَّوْس : تَذَبْذُبُ الشَّيْءِ . ناسَ الشيءُ يَنوسُ نَوْساً ونَوَساناً : تَحَرَّكَ وتَذَبْذَبَ متَدَلِّياً .... ونَاسَ نَوْسا : تَدَلَّى وَاضْطَرَبَ [1]

فكان اللفظ مناسبًا لقصد عموم ولايته على كل من يدخل في سلطان دولته في الوقت ومن يستقبل وممن هم في المكان أو من هم خارجه .

ولما كان هذا النداء من الأهمية بمكان ناداهم بـ (أيها) ، قال الزمخشري : " و أي وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أنّ (ذو) و (الذي) وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل. وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو(أي) والاسم التابع له صفته، كقولك : يا زيد الظريف إلا أن (أيا) لا يستقل بنفسه استقلال(زيد) فلم ينفك من الصفة. وفي هذا التدرّج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضًا مما يستحقه أىّ من الإضافة . فان قلت : لم كثر في كتاب اللَّه النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت :

---

(١) ينظر لسان العرب ج٦ ص٢٤٥ .

لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة" [١]

كما أن النداء بـ(أيها الناس) فيه اتباع لنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبه ، وهذا يدل على اتباع خليفته لنهجه من أول يوم في توليته في كلامه وأفعاله . كما أن هذا الخطاب فيه تسويه بينهم وبينه أولا ، ثم فيما بينهم أيضًا فالجميع متساوون لذا خاطبهم بمطلق حقيقتهم دون تمايز . وهذا يجعل نفوسهم تتقبل الخطاب الذي سيلقى دونما تذمر .

كذلك تجده وقد آثر اسم الجنس في مقصد الخطبة حيث سياق عموم التحذير والترهيب مما يوهن الدولة ويفت منها ثم ينقضها فآثر اسم الجنس : القوم في قوله : (لا يدع قوم الجهاد...)، وقوله : (ولا تشيع الفاحشة في قوم ...) وفي إيثار قوم هنا دلالة على أنهم في تركهم الجهاد ابتداء إنما تركوه تهاونًا ووهنًا لا عذر لهم في ذلك، إن دلالة القوم على استكمال مقومات القومية في اللغة ودورانه حول هذا يمنع إعذارهم في تركهم الجهادَ، يُقَالُ : فُلَانٌ ذُو قُومِيَّةٍ عَلَى مَالِهِ وأَمْرِه . وَتَقُولُ : هَذَا الأَمر لَا قُومِيَّة لَهُ أَيْ : لَا قِوامَ لَهُ . والقُومُ: القصد.[٢]

فقد استوفوا كل مقومات قوميتهم ومنها الجهاد الذي به يكون حماية الدين والعرض والدفاع عن الوطن والأرض ..

ومع دلالة اسم الجنس (قوم) على العموم فإنه جاء به أيضا منكرا

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ج١ ص٨٩-٩٠ المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

(٢) لسان العرب ج١٢ ص٤٩٩

حتى يتأكد العموم ويتقوى، ويتلاقى العموم في اسم الجنس مع العموم في التنكير .

وكذلك الأمر في الموضع الآخر فإن شيوع الفاحشة مع توفر كل مقومات منعها دليل على رضاهم بها وهذا يؤذن بوقوع البلاء وعمومه فيهم ....

الصورة الثانية : **عموم ضمير الخطاب** ..

فالأصل في ضمير الخطاب أن يكون لمعين معلوم ـ كما سبق ـ ولكنه يخرج إلى العموم لتحقيق إشاعة المعنى في كل من تتأتى منه الإجابة بما يتناسب مع سياق النظم وبنائه وهذا كثير شائع في النظم العالي . كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [1]، أخرج في صورة الخطاب لما أريد العموم، للقصد إلى تفظيع حالهم وأنها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها، فلا تختص بها رؤية راء. بل كل من يتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب [2]

ومن ثم تجد الضمائر كلها في الخطبة وقد خرجت من معين إلى غيره تحقيقًا للعموم وتناسبًا مع افتتاحها بنداء الناس عامة .

تجد هذا في : وليت عليكم ...أعينوني... قوموني .

ويقابله إفراده رضي الله عنه ضميره فلم يأت مطلقا بالجمع ، بل أتى ضمير المتكلم عنده مفردا فقال : فإني ـ وليت ـ ولست ـ أحسنت ـ

---

(١) السجدة آية ١٢

(٢) الإيضاح ج٢ ص١١

فأعينوني _ أسأت _ عندي .....إلخ

وذلك لتحقيق غرضين :

الأول : تواضعه رضي الله عنه وهضمه لنفسه _ وهذا ليس من غرض البحث_ وإن أفاد إيحاءً التزامه بتلك الأحكام التي قررها في خطبته التزام الفرد من رعيته من دون استعلاء ، فهو واحد منهم .

الآخر: دلالة الإفراد على إثبات الحق وتأكيد وقوعه طمأنة لقلوبهم ، وتثبيتا وتأكيدا لتلك الحقوق كلها سواء كانت لهم عليه ، أو له عليهم .

الصورة الثالثة : الاكتفاء بالصفة عن الموصوف لإفادة العموم والشمول وهذا يطرد حين لا تخص الصفة أحدًا من الموصوفين أو فعلة أو حالا دون غيرها، ألا ترى إلى قوله تعالى في شأن اليهود : ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ (١) كيف أفاد بناء النظم على الصفة دون الموصوف عموم خيانتهم في أحوالهم وأفعالهم وأقوالهم وسكناتهم ولفتاتهم حتى كأنهم قد تجسدوا من الخيانة فنظرتهم خائنة وقولتهم خائنة وفعلتهم خائنة وهكذا كلما اطلعت عليهم وجدتهم في خيانة ما داموا يتنفسون وَالْمَعْنَى : وَلَا تَزَالُ تَكْشِفُ وَتُشَاهِدُ خَائِنَةً مِنْهُمْ. (٢)

---

(١) المائدة آية ١٣.

(٢) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ج٦ ص ١٤٤ المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

وهذا لا تجده في تقييده الوصف بموصوف فكان البناء على الصفة أدل على حكاية حالهم من المذمة وهي الغرض المراد ..

وقد ورد هذا الأسلوب التعبيري في أربعة مواضع من الخطبة :

أولها: في قوله : الصدق أمانة ....

ثانيها : في قوله : الكذب خيانة ..

ثالثها : في قوله : الضعيف فيكم قوي عندي ..

رابعها: في قوله : والقوي فيكم ضعيف ..

فهذه جميعها قد بنيت على الصفة في موضع الموصوف لإفادة العموم والشمول لكل موصوف يتحقق فيه الوصف ، وبهذا يتم العدل التام المطلق الذي لا يختص بأحد دون أحد .

ألا ترى أنه لو قال : (القول الصدق أمانة) أو : (الفعل الصدق أمانة) الخ ... ، أو قال : (القول الكذب خيانة) أو : (الفعل الكذب خيانة) الخ ... ، أو قال : (الرجل الضعيف فيكم قوي) أو : (المرأة الضعيفة فيكم..) الخ ... لخصص قيامه بالعدل في أحد الموصوفين دون غيره مما يقلل من عدله وقيامه بحق رعيته ..

فبناء النظم على الصفة من دون الموصوف لإفادة العموم والشمول في قيامه برعيته كلها صغيرها وكبيرها ذكرها وأنثاها ، وإفادة عموم نصحه وزجره لهم على وجه الشمول في القول والفعل ..

كما أنه في جميع الصفات التي أقامها مقام الموصوف عرفها بأل الجنسية حتى يتأكد العموم والشمول في الصيغة والبناء .

الصورة الرابعة : شمول أساليب الغاية والظرفية لكل أجزائها ؛ لإفادة الشمول في الأحوال وذلك مناسب لحال الخليفة بين الناس ، فهو في إقامة الحق يستغرق حاله ووقته كله فلا فرق بين حالة وأخرى ، أو وقت وآخر؛ بل يقوم بحقه حتى يأتي به على سواء فيه بما يتلاءم مع خطبة التولية... وقد ورد ذلك في مواضع ثلاثة من خطبته رضي الله عنه :

أولها : التقييد بـ(حتى) في قوله : (والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله) ..

وهذا ينبئ عن استعداد الصديق رضي الله عنه للمثابرة لتحقيق العهد الذي قطعه مهما طال الزمن واتسع الوقت ..

ذلك أن (حتى) في أصل وضعها في التقييد بها إنما تكون في طول الزمن وامتداده، أرأيت كيف جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [1] حَتَّى غَايَةٌ لِلزَّلْزَالِ، أَيْ بَلَغَ بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى غَايَةٍ يَقُولُ عِنْدَهَا الرَّسُولُ وَالَّذِينَ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ [2] ، انظر كيف دلت (حتى) هنا على طول مدة صبرهم وأمد انتظارهم الوقت الطويل الممتد حتى قالوا هذا .

فكذلك هنا قيد بـ(حتى) لينبه على استعداده لمجاهدتهم الوقت الطويل ليحقق العدل ويقيمه بينهم من دون فرق بين قوي وضعيف ولا فرق بين

---

(١) البقرة آية ٢١٤ .

(٢) التحرير والتنوير .ج٢ ص٣١٦ .

وقت وآخر أو حال وغيره .

ثانيها : التقييد بـ(قط) في قوله : ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء.

فـ(قط) في اللغة هُوَ الأَبَدُ الْمَاضِي، تَقُولُ : مَا رأَيت مِثْلَهُ قَطُّ،... قَطْ سَاكِنَةُ الطَّاءِ مَعْنَاهَا الِاكْتِفَاءُ... وقَطُ مَعْنَاهَا الِانْتِهَاءُ وَبُنِيَتْ عَلَى الضَّمِّ كحَسْبُ.(١)

فإيثار (قط) هنا للدلالة على تأبيد وقوع الجزاء عند شيوع الفاحشة في كل الأزمنة الماضية عند جميع الأمم .

وهذا إذا استقريته في تاريخ الأمم في القرآن الكريم كقوم لوط مثلا تجده بينا ، فإنهم أهلكوا بعذاب استئصال حين عمت فيهم الفاحشة واستعلنوا بها .

ولعل في إيثار (قط) التي هي لتأبيد الماضي دلالة على تحذيرهم من وقوعهم مما وقع فيه أسلافهم في الزمن الماضي ؛ لأن سنن الله لا تتخلف.

ثالثها : (ما) المصدرية أو الظرفية فـ(ما) تكون مصدرية ظرفية نحو : لا أصحبك ما دمت منطلقًا أي : مدة دوامك منطلقًا ... وتوصل بالماضي كما مثل ، وبالمضارع نحو : لا أصحبك ما يقوم زيد (٢) . وقد جاءت في

---

(١) ينظر : لسان العرب ج٧ ص٣٨١ .

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ج١ ص ٣٩ المؤلف : ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى : ٧٦٩هـ) المحقق : محمد محي الدين عبد الحميد . الناشر : دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه . الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .

قوله : (أطيعوني ما أطعت الله ...)

فتقييد طاعته بها هنا لإفادة عموم إلزامهم بالطاعة في كل وقت أطاع فيه الله ورسوله فلا يخلو منها وقت لهم .

ثانيا : أسلوب التأكيد :

التأكيد : تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره .

وفائدته : إزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد.(١)

ذلك أن الأصل في الكلام لتأدية المعنى المراد أنْ لا تزيد كلماتهُ عمَّا يُؤَدّي أصل المعنى، فإذا زادت عمّا يؤدّي أصل المعنى المقصود بالبيان لغرض يُقْصَدُ لدى البلغاء كان ذلك إطناباً مفيداً، كلّما دعت الحاجة إليه، كأن تكون الزيادة معه يقتضيها حال المتلقّي للكلام، أو حال المعبّر عما في نفسه، كعاشق، أو فرِحٍ أو حزين.

ومن الزيادات في الكلام عن أصل المعنى المقصود بالبيان إضافةُ المؤكّداتِ إليه مراعاةً لحال من يُوَجِّه له(٢) فيكون الكلام أكثر فائدة وأبين للمعنى المراد .

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ج٢ ص٩٤ المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه (المتوفى: ٧٤٥هـ) الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ .

(٢) البلاغة العربية ج٢ ص ١٠٥ المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ) الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة: الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

ومن ثم كان مطلوبًا في الكلام بل واجبًا لمراعاة حال المخاطبين ؛ لأن الحاضرين منهم المؤيد والمعارض ، الموافق والمتردد والمنكر لخلافته رضي الله عنه ، وإن كان المخاطب متردّدًا في الحكم، طالبًا له حسن تقويته بمؤكّد، وإن كان منكرًا وجب توكيده بحسب الإنكار [١]

وهنا جاء التأكيد بـ(إن) المؤكدة ، و(قد) وهي حرف تحقيق وهو معنى التأكيد ... ولا يؤتى بها في شيء إلا إذا كان السامع متشوقًا إلى سماعه[٢] – في قوله : إني قد وليت عليكم . فكان لها فضل توكيد وتقرير للغرض المراد وهذا هو معناها الرئيس .

ثم ترى للتأكيد معنى آخر يتسق مع ما سبق وهو تشويق المخاطب للحدث فعندما تمت مناداته بـ (أيها) علم أن هناك خبرًا مهما فاستشرف لسماع ما بعدها ؛ فجاء إليه الخبر مؤكدًا بأكثر من مؤكد بما لا يدع مجالا للشك أو الإنكار.

وبذلك يكون سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ألزمهم بالأمر بطريقة حاسمة جازمة لقطع الإنكار والتردد والشكوك.

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ج١ ص٢٧ المؤلف: أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ) المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي . الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م .

(٢) البرهان في علوم القرآن ج٢ ص٤٣٢ للإمام بدر الدين الزركشي المتوفى سنة (٧٩٤ هـ) علق عليه : مصطفى عبد القادر عطا . دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤ م .

ثم جاء بعد المؤكدات بالفعل الماضي المبني للمجهول (وليت) الذي كان له دلالات متعددة تتناسق مع التأكيد السابق وتزيد منه ..

أولها: إلزامهم بالأمر وإثبات حق الولاية له ؛ لأنه تمت ولايته فلا مجال للنقاش أو الرفض فولايته أمر واقع محقق.

ثانيها : أن هذه الولاية جاءت له من غير أن يطلبها أو يسعى إليها وهذا ما أكده بناء الفعل للمجهول فهذه الولاية مجمع عليها من الكثيرين فليس هناك من يستحقها مثله .

ثالثها : امتثاله للأمر فقد وافق أن يحمل على عاتقه هذه المسؤولية الجسيمة حتى لا يزيغ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتفكك الأمة فهو من سيجمع شملها ويعيد الأمور إلى نصابها.

ولذا كان التعبير بالفعل الماضي المبني للمجهول هو الأنسب في هذا المقام والذي أثبت الحق له في الولاية دون منازع.

كما أن تعبيره بالولاية في قوله : (وليت) فيها التقرب إليهم بخلاف غيرها من الكلمات كـ : أمرت عليكم مثلا ؛ لأن كلمة الولاية من (الولي) والوَلِيُّ : الصَّدِيق والنَّصِير... و الوِلِيُّ التَّابِعُ الْمُحِبُّ... ودارٌ وَلْيةٌ : قَرِيبة[1] ولذا آثر الصديق رضي الله عنه التعبير بها ليشعرهم بقربهم منه وبقربه منهم، فهو ليس بالجبار ولا المتسلط بل هو الصديق والنصير والمحب لهم. والتولية هي المحور الذي دار حوله كل ألفاظ الخطبة ، فهذه الكلمة هي أساس الخطبة كلها فهي متعلقة بما بعدها ، وعلى أساسها بنيت الحقوق

(١) ينظر : لسان العرب ج١٥ ص٤١١ .

والواجبات .

كما آثر التعبير بـ(عليكم) التي تفيد الاستعلاء دون (فيكم) مثلا ؛ لأنه أراد أن يثبت أنه صاحب حق وصاحب الحق دائمًا مستعلي. قال ابن الأثير : " قد علم أن" في " للوعاء، و"على " للاستعلاء كقولهم: زيد في الدار، وعمرو على الفرس، لكن إذا أريد استعمال ذلك في غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدل فيه عن الأولى. فمما ورد منه قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۙ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [1] ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفي الجر ههنا، فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل؛ لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركض به حيث شاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه لا يدري أين يتوجه، وهذا معنى دقيق، قلما يراعى مثله في الكلام"[2] .

فكل لفظة عبر بها الصديق كانت الأنسب في إثبات حق ولايته ، ولو جاء غيرها في موضعها لما كان لها هذا الأثر ، وذلك الإيحاء.

ثالثا : أسلوب الشرط والأمر :

ودلالة الإلزام من أسلوب الشرط والجزاء بين ظاهر في الترتب العقلي

---

(١) سبأ الآية ٢٤ .

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج٢ ص ١٨٩-١٩٠ المؤلف: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: ٦٣٧هـ) المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة . الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة .

بينهما ثم في ارتباطهما ارتباطًا أسلوبيًّا ؛ ومن ثم كان هذا الأسلوب عند الإمام عبد القاهر مما يمزج به النظم فيقوى حتى يصير بناء واحدًا فيدق ويعمق[١] ، ويأتي أسلوب الشرط في قوله : (إن أحسنت فأعينوني) للتلازم في العلاقات بين الشرط والجزاء فيجعل هذا الحق لازمًا في عنقهم لا بد من الالتزام به ، فهو يطلب منهم العون في حالة الإحسان إليهم.

فأصل الشرط والجزاء أن يتوقف الثاني على الأول ، بمعنى أن الشرط إنما يستحق جوابه بوقوعه هو في نفسه [٢]

فالعون واجب عليهم له ، ولذا عبر بالأمر (أعينوني) فالأمر في دلالته الرئيسة على الوجوب يتناسب مع إثبات حق الولاية ، فحق الراعي الإجابة إلى الأمر . والأمر وهو طلب فعل غير كف على وجه الاستعلاء... والأظهر أنّ صيغته من المقترنة باللام؛ نحو : ليحضر زيد وغيرها؛ نحو : أكرم عمرًا، ورويد بكرًا، موضوعة لطلب الفعل استعلاء؛ لتبادر الفهم عند سماعها إلى ذلك المعنى .[٣]

ولا شبهة في أن طلب المتصور على سبيل الاستعلاء يورث إيجاد

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص٨١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص٣٦٩ .

(٣) ينظر : شروح التلخيص ج٢ ص٣٠٩-٣١١ وهو مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي وقد وضع بالهامش كتاب الإيضاح لمؤلف التلخيص وحاشية الدسوقي على شرح السعد . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .

الإتيان به على المطلوب منه ثم إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه وجوب الفعل بحسب جهات مختلفة [١] .

وعبر بلفظ (أعينوني) ولم يقل : فساعدوني مثلا أو فشجعوني ؛ لأن العَوْنُ: الظَّهير عَلَى الأَمر.... [٢] ففيها معنى المساندة الواضحة التي لا خفاء فيها ، فهو يريدهم أن يكونوا أنصاره الذين يستظهر بهم ؛ فجاء هذا اللفظ أنسب للغرض .

وعطف فعل الإعانة على الإحسان بـ (الفاء) ؛ لأنه يطلب سرعة معاونته على الفور من غير تراخٍ ، فالعون يكون ملازمًا للإحسان . فهذا حقه عليهم . وعبر بالإحسان ؛ لأن الإحْسان ضدُّ الإساءة ... وَفَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإحسانَ حِينَ سأَله جِبْرِيلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ، فَقَالَ : هُوَ أَن تَعْبُدَ اللَّهَ كأَنك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنه يَراك، وَهُوَ تأْويلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[٣] ؛ وأَراد بالإحسان الإِخْلاص، وَهُوَ شرطٌ فِي صِحَّةِ الإِيمان والإِسلام مَعًا، وَذَلِكَ أَن مَنْ تلفَّظ بِالْكَلِمَةِ وَجَاءَ بِالْعَمَلِ مِنْ غَيْرِ إِخْلاص لَمْ يَكُنْ مُحْسِناً، وإِن كَانَ إِيمانُه صَحِيحًا، وَقِيلَ : أَراد بالإحسان الإِشارةَ إِلى المُراقبة وحُسْن الطَّاعَةِ، فَإِنَّ مَنْ

---

(١) مفتاح العلوم ص ٣١٨ المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ) ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور . الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

(٢) ينظر : لسان العرب ج١٣ ص ٢٩٨-٢٩٩ .

(٣) النحل أية ٩٠ .

راقَبَ اللهَ أَحسَن عمَله [١] فحقهم عليه أن يعاملهم بالإحسان، وحقه عليهم العون والمناصرة .

كما أتى بشرط آخر وهو (وإن أسأت فقوموني) أيضًا أتى بالفعل الأمر (قوموني) ليلزمهم بذلك ، وأيضًا عطفه بالفاء كالذي قبله ؛ لأنه يريد أن يكون هذا التقويم على الفور من غير تراخٍ ، أي فور إساءته. وعبر بالإساءة دون غيرها من ألفاظ ؛ لأن السُّوء: اسْمٌ جَامِعٌ لِلْآفَاتِ والداءِ[٢] ؛ فهو أراد كل ما تعنيه هذه الكلمة من ضرر.

وهو لم يحدد مفعول الإساءة فلم يقل مثلا أسأت العمل أو أسأت الحكم ؛ لأنه أراد مطلق الإساءة سواء في القول أو العمل.

ثم يأتي الأمر(أطيعوني) فهذه الطاعة على وجه الإلزام ، وهي حق أصيل من حقوق الراعي ومن ثم متعلقة بالولاية في أول الخطبة التي هي الأساس في الخطبة ، فمن حق ولي الأمر أن يطاع وهذه الطاعة أمر بها الله سبحانه وتعالى ، وجعلها مقترنة بطاعته وطاعة رسوله قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [٣] ؛ ولذا قيد الصديق طاعته بطاعة الله ورسوله فقال: (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) فجعل طاعته مقيدة بطاعة الله إيجابًا وسلبًا.

وبذلك جاءت الأساليب في الخطبة مناسبة لإثبات حق الراعي .

---

(١) ينظر : لسان العرب ج١٣ ص١١٧ .

(٢) لسان العرب ج١ ص٩٩ .

(٣) النساء آية ٥٩ .

المبحث الثاني

أساليب إثبات حقوق الرعية :

لا ريب أن العلاقة بين الراعي والرعية علاقة تبادل حقوق وواجبات ومن ثم كانت خطبة التولية كفيلة بإبراز هذه العلاقة لإشاعة جو من الطمأنينة والثقة في قلوب الرعية ..

وإذا كانت خطبة أبي بكر رضي الله عنه في توليته قد أبانت ابتداء عن حق الراعي لاستلزام مقامه بينهم معرفًا بنفسه وما يستلزمه العهد عليه وله ، فإنه من التناسب أن يتبعه ببيان حق الرعية وما يجب لهم ..

ومن ثم كان هذا الترتيب بين أجزاء الخطبة مناسبا للترقي في بيان الحقوق وإثباتها بأساليب بلاغية عالية منه رضي الله عنه .

ولذا فقد اشتمل هذا المبحث على عدة أساليب تتناسب مع إثبات حق الرعية وهي: أسلوب وضع الخبر موضع الإنشاء، والتفصيل بعد الإجمال وعكسه ، وأسلوب المقابلة .

وإنما تناسبت في الجملة مع حق الرعية ؛ لأنها في إثباتها الحق لهم جعلته مسلمًا بدهيًّا لا يقبل الجدال فجاء إثباتها محققًا تحقق الخبر المتيقن .

وقد تعاضدت هذه الأساليب وتعلق بعضها على بعض فجاءت مناسبة للغرض والسياق كما سيتضح من خلال المبحث.

أولا :أسلوب وضع الخبر موضع الإنشاء :

الكلام إمّا خبر، وإما إنشاء؛ لأنه إن كان لنسبته خارج تطابقه أو لا

تطابقه : فخبر، وإلا فإنشاء[١]

فالخبر في اللغة : هو ما يحتمل الصدق والكذب. والإنشاء في اللغة : هو ما لا يحتمل صدقًا ولا كذبا، كالأمر والنهى والدّعاء والتمني والترجي، إلى غير ذلك مما يكون إنشاء[٢]

والخبر والإنشاء متضادان، ... فلا يجوز في صيغة واحدة أن تكون حاملة إنشاء وخبرًا، لما ذكر من التناقض بينهما، نعم قد ترد صيغة الخبر والمقصود بها الإنشاء، إما لطلب الفعل، وإما لإظهار الحرص على وقوعه، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [٣] ، ونحو قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [٤]

فليس واردًا على جهة الإخبار فيهما جميعًا؛ لأنه يلزم منه الكذب، وهو محال في كلامه تعالى؛ لأن كثيرًا من الوالدات لا ترضع الحولين، بل تزيد وتنقص، وهكذا قد يدخل البيت من هو خائف، فلهذا وجب تأويله على جهة الإنشاء، والمعنى فيه: لترضع الوالدات أولادهن حولين على جهة الندب والإرشاد إلى المصالح، وهكذا قوله : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ معناه : ليأمن من دخله. ومخالفة الأوامر لا فساد فيها، ولا يلزم عليه محال، بخلاف الأخبار فإنه يلزم من مخالفتها الكذب. ولا يرد الإنشاء، ويكون في معنى

---

(١) عروس الأفراح ج١ ص١٠٠ .
(٢) ينظر : الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ج١ ص ٣٥ .
(٣) البقرة آية٢٣٣ .
(٤) آل عمران الآية ٩٧ .

الخبر إلا على جهة الندرة .... والسر في ذلك هو أن الإنشاء إذا ورد بمعنى الخبر فليس فيه مبالغة، بخلاف عكسه، فإنه يفيد المبالغة، وهو الدوام والاستمرار.(١)

ويلحظ وضع الخبر موضع الإنشاء في عبارة الصديق: (الصدق أمانة، والكذب خيانة)؛ للمبالغة ، فالجملة الاسمية أفادت الثبوت والدوام ، فهو يريد منهم الثبات والمداومة على لزوم الصدق وترك الكذب. ... فكان مقتضى الظاهر أن يأتي النظم على نحو من الطلب بالأمر والنهي : أصدقوني ولا تخونوا . ولكن بين الجملتين فروقا كثيرة .

فالخبر هنا فيه استشعار بأن الأمر مسلم عندهم وفيهم ؛ فهم يعرفونه ويؤدونه لا سيما وأن المخاطبين به هم الصحابة رضوان عليهم .

فهو يطلب منهم أن يراقبوه في قوله وفعله ويقوموا أداءه كجهة رقابية ، ثم يصدقوه بعد أن ينظروا إحسانه أو إساءته ، فهذه العبارة تعلقت بما قبلها؛ لأنها جاءت بعد طلبه منهم إعانته وتقويمه وهذا لا يكون إلا بالصدق وعدم الكذب ، فهو كحاكم يضع لهم الأسس التي يسيرون عليها من البداية ، فهو لا يريد منهم أن يعاملوه برياء وتملق أو خوف ورهبة لأنه الحاكم ، بل يطلب منهم الوضوح والشفافية في التعامل ؛ حتى يستطيع أن يعطي كل ذي حق حقه كما سيأتي .

ثم تجد في الخبر ابتعادًا منه رضي الله عنه عن أسلوب الأمر وما يقتضيه من علو الآمر على المأمور لا سيما في الأمور البدهية التي لا

---

(١) ينظر : الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ج٣ص ١٦٢ .

يتأتى فيها للمخاطب مخالفة.

فالصديق رضي الله عنه ليس بالحاكم المتسلط ولا المتجبر بل يظهر اللين والرفق في جميع كلامه ، فهو يعطيهم الأمان ، ويعدهم به من خلال عبارته (الصدق أمانة والكذب خيانة) فهذا حقهم عليه وهو يثبته لهم . فعندما طلب منهم أن يعينوه إن أحسن ، ويقوموه إن أساء ، بين لهم كيف يكون ذلك ، فقال لهم: إن هذا لا يتم إلا بمصارحته وتقديم النصح والمشورة له ؛ ولذلك فصل هذه العبارة عن سابقتها؛ لأنها جاءت بيانًا لها فبينهما (كمال اتصال) .

ثم إنك ترى تعلق هذه الجملة بالجملة الأم في الخطبة بينا إذ إنهم_ بهذا الإيثار للخبرية في ثوب الجملة الاسمية المستلزمة لثبوت المعنى وتقريره في ذهن المخاطبين _ متساوون فيه فكان فيها تحقيقًا لقوله: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم . فتعلقت بالبناء الرئيس للخطبة بما يجعلها متحدة النظم .

ثانيا : **أسلوب المقابلة** :

عرفها السكاكي بقوله : "والمقابلة، وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما. ثم إذا شرطت هنا شرطًا شرطت هناك ضده."(١)

وللمقابلة فضل في إظهار المعاني في صورة أبين للمتلقي؛ إذ لذكر الضد أثر في بيان ما في الآخر من محاسن أو مقابح فضلا عن استكمال

---

(١) مفتاح العلوم ج١ ص٤٢٤

أجزاء الصورة وتفصيل عناصرها .

وقد جاء التقابل لإثبات حق الرعية في خطبة تولية الصديق في موضعين:

أولهما في قوله : : الصدق أمانة والكذب خيانة .

فقابل الصديق رضي الله عنه بين قوله: (الصدق أمانة) وقوله: (الكذب خيانة) فالصدق ضده الكذب والأمانة ضدها الخيانة ، فجاءت هذه المقابلة من أجمل المقابلات في موضعها ؛ فهذه المقابلة تزيد من تحسين الصدق في النفوس وتقبيح الكذب ، فهيأ هذا لقبول الأمر بالصدق ، والنهي عن الكذب .

وعرف (الصدق والكذب) بـ(أل) للاستغراق وبيان حقيقة كل منهما فهم يعرفون حقيقتهما ويتمثلونهما في نفوسهم .

وإنما آثر الصديق رضي الله عنه المقابلة بين هذين الخلقين على وجه التضاد بينهما لثلاثة أغراض :

أولها: ما كانوا عليه من النفور من الكذب نفورًا يخرج صاحبه عن الإيمان، فالمؤمن لا يكذب فكان في الإخبار عنه بالخيانة تنبيه على زيادة تحقيره في نفوسهم؛ لما للخيانة من وسم الغدر والخسة والنقص الذي لا يتناسب مع المخاطبين ...

ومن ثم تناسب هذا مع الإخبار بالمصدر حتى كان الكذب قد تجسدت فيه الخيانة وتجسد هو منها زيادة في تحقيق المعنى وتقريره في نفوسهم .

فاذا كان هذا القبح في مقابلة الصورة الناصعة البياض وهي الصدق استبان ما بينهما من بون وفرق وكان حريًّا بتحقيق غرضه . فهو يريد

منهم الالتزام بالصدق الحقيقي ، والبعد عن جنس الكذب كله، ونكر كلمتي (أمانة وخيانة)؛ للتعظيم فكما أن الصدق أمانة عظمى ، كذلك الكذب خيانة عظمى لا تغتفر .

ثانيها : تأكيد المعنى السابق للأمر : فأعينوني و قوموني ذلك أن الإعانة والتقويم تحتاج إلى صدق فيهما فليس الأمر رياء ولا سمعة ولا لغرض دنيوي من مال أو جاه يكون من القرب من الخليفة بل هو يعتمد على صدق في التقويم والإعانة وبعد عن الكذب؛ لأنه يعينه حينئذ على تأدية أمانة الخلافة والقيام بحقها حق القيام ..

ثالثها : في المقابلة تماسك نصي في الخطبة إذ إنها تتعلق بالتولية في قوله : إني قد وليت عليكم ..

ذلك أن الأمر كله في ولايته عليهم قائم على هذين ونتيجتهما وكذلك حالهم معه فجعل الصديق رضي الله عنه الراعي والرعية في بوتقة واحدة يدورون بين هذين الاحتمالين فالراعي والرعية معا إما في صدق وتأدية للأمانة، وإما في كذب فهم في خيانة لها وكلا الأمرين له نتيجته التي أبهمها رضي الله عنه زيادة في تهويلها حتى تذهب النفس كل مذهب في تصورها.

وهكذا جاءت عبارة الصديق في موضعها من أليق ما يكون بالسياق والغرض فلو قال: (أصدقوا ولا تكذبوا) لما كان لها هذا التأثير، ولظهر تسلطه وجبروته من خلال الأمر والنهي ، أما في قوله: (الصدق أمانة والكذب خيانة) فكأنه يلزم نفسه بذلك قبل أن يلزمهم به ، وكأنه حق متبادل بين الراعي والرعية ، وقد يكون إلزامًا في حق الراعي مع رعيته أولا ؛ لأنه المتحدث ابتداء ، وجاءت هذه العبارة في سياق الإخبار بمستقبله معهم،

فهي مرتبطة بعبارة المحور في الخطبة (وليت عليكم) ومن هنا يلزم نفسه بالصدق والأمانة قبل أن يلزمهم بهما، وبالتالي يكون التزامهم تابعًا لالتزامه.

الموضع الثاني : في قول الصديق رضي الله عنه: (وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أزيح علته إِنْشَاءَ اللَّهُ ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى آخذ مِنْهُ الْحق إِنْ شَاءَ اللَّهُ).

فقابل رضي الله عنه بين القوي والضعيف وعكسهما وحالهما عنده ليكون هذا منهاجًا على وجه التفصيل .

ومن ثم كان هذا الخبر للوعد والضمان متناسبًا مع الغرض من المقابلة ومؤسسًا على مقابلة مهدت لها .. فإنه ترتب على عباراته السابقة وتعلق بها فإن عاونوه وقوموه وصدقوا معه ولم يكذبوه ، فهو يضمن لهم حقوقهم بداية من الامتثال لمشورتهم الصادقة ، التي لا كذب فيها ولا رياء وانتهاء برد الحقوق إلى أصحابها ، حتى لا يبقى الضعيف ضعيفًا بسلب حقه ، ولا القوي قويًّا بتسلطه وظلمه .

وقد بنيت المقابلة بناء يقوي من ظهور التضاد بين أطرافها فقد آثر الصديق رضي الله عنه التعبير بالجملة الاسمية؛ لأن ذلك سيكون على وجه الثبوت والدوام، فلا يرتبط بموقف دون موقف ، أو بشخص دون آخر ، بل الكل عنده متساوون في كل الأحوال . وأيضًا للتأكيد فالجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية "والسَّبَبُ في كون الجملة الاسمية تحمل تأكيداً لا تحمله الجملة الفعليّة، أنّ خبر الجملة الاسميّة يحمل في التقدير الذي يُلاحَظُ في ذهن العربيّ ضميراً يعودُ على المبتدأ، أوْ ما أصْلُه المبتدأ، فيكون حالُ الجملة الاسميّةِ دواماً مثل حال تقديم ما هو فاعل في المعنى على فعله، قد

جرَى فيها الإسنادُ إلى المسنَدِ إليه مرّتين"[١]

ومن ثم راعى في ترتيب أجزائها ما يقوي غرضه من الضمان والوعد ويظهر شخصيته رضي الله عنه من القيام بحق الضعفاء وشفقته عليهم .

فقدم الضعيف على القوي؛ لأنه اشتهر رضي الله عنه بنصرته للضعفاء والعبيد والدفاع عنهم ومساعدتهم ، على أي وجه ، ولذا آثر الصديق التعبير بلفظ (الضعيف) بدلا من (صاحب الحق) مثلا ؛ لأن الضُّعْفُ: خِلافُ القُوَّةِ، وَقِيلَ : الضُّعْفُ، بِالضَّمِّ، فِي الْجَسَدِ؛ والضَّعْف، بِالْفَتْحِ، فِي الرَّأْيِ والعَقْلِ، وَقِيلَ :هُمَا مَعًا جَائِزَانِ فِي كُلِّ وَجْهٍ، .... والضَّعْفَةُ : ضَعْفُ الْفُؤَادِ وقِلَّةُ الفِطْنَةِ.... رَجُلٌ مَضْعُوفٌ وضَعُوفٌ وضَعِيفٌ،... وشِعر ضَعِيف :عَلِيل[٢] فهو أراد نصرة الضعيف على أي صورة كان ضعفه سواء كان ضعف الجسد أو الرأي والعقل والفطنة أو عليل فعلى أي حاله سينصره ويكون بجانبه . فقد أحسن الصديق رضي الله عنه وأجاد في التعبير بتلك اللفظة دون غيرها للدلالة على المراد .

وآثر التعبير بحرف الوعاء (فيكم) في قوله (والضعيف فيكم ...) بدلا من (منكم) ليقول إن هذا الضعيف حتى ولو كان داخلا في الناس مختلطًا بهم غير ظاهر لا يدري أين يتوجه فأنا سأبحث عنه وأتحرى عنه وأخرجه من بين الناس لأرد له حقه .

وقال: (قوي عندي) ؛ لأنه يقوى بحقه فصاحب الحق قوي ، وقال:

---

(١) البلاغة العربية ج١ ص١٨٧.

(٢) ينظر: لسان العرب ج ٩ ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

(عندي) ؛ لأن هذا خاص به رضي الله عنه ، فهو الوحيد القادر على نصرته وإرجاع الحق له.

وقال : (حتى أزيح علته) فحتى غائية أي أنه سيظل ضعيفًا حتى أرجع الحق له ، فينتهي ضعفه ويقوى بحقه . فهو لن يترك الضعيف على حاله أبدًا بل سيظل معه ناصرًا له حتى يصير قويًّا .

وعبر بكلمة (أزيح) في قوله: (أزيح علته) ؛ لما فيها من معني الذهاب والتباعد ؛ فالزَّوْحُ تَفْرِيقُ الإبل، وَيُقَالُ : الزَّوْحُ جَمْعُها إذا تَفَرَّقَتْ؛ والزَّوْحُ : الزَّوَلانُ... زاحَ وزاخَ، بِالْحَاءِ وَالْخَاءِ، بِمَعْنًى وَاحِدٍ إذا تَنَحَّى ، وَمِنْهُ زاحتْ علَّته، وأَزَحْتُها أَنا. وزاحَ الشيءَ زَوْحاً، وأَزاحَه : أَزاغه عَنْ مَوْضِعِهِ ونَحَّاه. وزاحَ هُوَ يَزُوحُ، وزاحَ الرجلُ زَوْحاً : تَبَاعَدَ . والزَّواحُ :الذهابُ؛... زاحَ الشيءُ يَزِيحُ زَيْحاً وزُيُوحاً وزِيُوحاً وزَيَحاناً، وانْزاحَ : ذَهَبَ وَتَبَاعَدَ؛ وأَزَحْتُه وأَزاحَه غيرُه . وَفِي التَّهْذِيبِ : الزَّيْحُ ذهابُ الشَّيْءِ، تَقُولُ : قَدْ أَزَحْتُ عِلَّتَهُ فزاحتْ [1]

فهو سيخلصه نهائيًّا من علته ويزيلها تمامًا، وعبر بـ(العلة) لما فيها من معنى المرض والانشغال فالعِلَّة المَرَضُ. عَلَّ يَعِلُّ واعْتَلَّ أَي مَرِض، فَهُوَ عَلِيلٌ، وأَعَلَّه اللهُ، وَلَا أَعَلَّك اللهُ أَي: لَا أَصابك بِعِلَّة. واعْتَلَّ عَلَيْهِ بِعِلَّةٍ واعْتَلَّه إذا اعْتَاقَهُ عَنْ أَمر. واعْتَلَّه تَجَنَّى عَلَيْهِ . والعِلَّةُ : الحَدَث يَشْغَل صاحبَه عَنْ حَاجَتِهِ، كأَنَّ تِلْكَ العِلَّة صَارَتْ شُغْلًا ثَانِيًا مَنَعَه عَنْ شُغْله الأَول[2]

---

(١) ينظر: لسان العرب ج٢ ص٤٧٠ .

(٢) ينظر: السابق ج١١ ص٤٧١ .

فالصديق رضي الله عنه سيقضي على علته التي تشغله وتعيقه عن مواصلة حياته بشكل طبيعي بأي صورة كانت ، حتى يطمئن ويريح باله .

ولذا جاءت عبارة (يزيح علته) أمكن من غيرها في هذا المقام . ومتعلقة بكلمة (الضعيف) ومناسبة لها .

ثم قال : (والقوي فيكم...) لما عبر بـ(الضعيف) في أول الأمر عبر هنا بـ(القوي) فالقُوَّةُ نَقِيضُ الضَّعْفِ، وَالْجَمْعُ قُوًى وقِوًى . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ (١)؛ أَي بِجِدّ وعَوْن مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، ... ويَكُونُ ذَلِكَ فِي البَدن وَالْعَقْلِ(٢)

فالقوي سواء كان قويًّا بجسده أو قويًّا بعقله كأن استبد برأيه مثلا واستقوى على الضعيف بأي صورة كانت فالصديق رضي الله عنه سيكون له بالمرصاد ، بدليل قوله (القوي فيكم ضعيف) .

وقد آثر التعبير بـ(فيكم) هنا أيضًا ولم يقل: (منكم)؛ لأن هذا القوي وإن توغل فيهم بقوته وتمكن منهم تمكن الظرف من المظروف فسيأتي به الصديق فهو لا يخاف قوته وجبروته؛ لأنه ضعيف عنده يستطيع أن يحكم قبضته عليه ولن يفلته حتى يأخذ حق الضعيف منه ؛ بدليل قوله: (حتى آخذ منه الحق) .

ثالثا :أسلوب التفصيل بعد الإجمال وعكسه :

التفصيل بعد الإجمال هو: أن يرى المعنى في صورتين مختلفتين أو

---

(١) مريم الآية ١٢ .

(٢) ينظر: لسان العرب ج١٥ ص ٢٠٧ .

ليتمكن في النفس فضل تمكن فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم.

أو لتمكن اللذة بالعلم به فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم أو لتفخيم الأمر "[1]

وقد جاء التفصيل بعد الإجمال في موضع واحد وهو في قول الصديق رضي الله عنه : (وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أزيح علته إِنْشَاءَ اللَّهُ ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى آخذ مِنْهُ الْحق إِنْ شَاءَ اللَّهُ) يعد تفصيلاً للإحسان في العبارة السابقة (إن أحسنت ...) فهو تفصيل بعد إجمال ؛ لأنه لما قال: (إن أحسنت ...) كان هذا الإحسان على وجه الإجمال ، فأراد أن يفصل لهم إحسانه إليهم ، وذلك يكون بنصرة الضعيف فيزيل ضعفه ، والضرب على يد الظالم فينتهي عن ظلمه.

وهذا إحسان ليس بعده إحسان؛ لأن بنصرة الضعيف ومحاسبة الظالم يسود العدل ، والعدل أساس الملك . وبذلك يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا ، فيقهر وساوسهم ومخاوفهم من توليته الخلافة بإعطاء كل ذي حق حقه .

---

(١) الإيضاح ج٣ ص ١٩٦-١٩٧

كما جاء الإجمال بعد التفصيل في خاتمة الخطبة حين أمرهم بالقيام إلى صلاتهم فهو إجمال لكل الحقوق السابقة من حق طاعته في الأمر وحقهم في نصحه لهم وحق الله في تأدية فريضته . فكانت تلك الجملة تركيزًا لكل ما في الخطبة من حقوق وتطبيقًا عمليًّا لها ومن ثم فصلت لأنها تأكيد معنوي لكل الحقوق .

المبحث الثالث

أساليب إثبات حقوق اللّه :

من بديع ترتب المعاني في خطبة الصديق أن يجعل تلك الحقوق في إثباتها مرتبطة بحق الله عز وجل لينبه إلى ثلاثة أمور :

– إن طاعتهم له ليست من قبيل القهر لإرادتهم وإنما لامتثال أمر الله لهم ..

– إنه في هذه التولية مؤد حق الله ومن ثم كان الترابط ملزما لاتباعه وإنه من بين حقوق الله.

– إن هذه المنظومة الكلية في الحكم إنما هي دائرة في سياق حقوق الله حاكما ومحكوما فمن ثم يكون الإذعان والتسليم .

ومن ثم حرص الصديق رضي الله عنه على إبراز حقوق الله فيهم بأساليب قاطعة مؤكدة فاشتمل على أسلوبين وهما القصر والأمر وقد تناسب الأسلوبان مع إثبات حقوق الله تعالى كما سيتضح من المبحث

أولا : أسلوب القصر :

القصر في اللغة : الحبس

وفي الاصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[1]

وللقصر أساليب وطرق متعددة عند البلاغين وإنما اختار الصديق طريقًا واحدًا منها وهو النفي والاستثناء وكرره متتابعًا ؛ لأنه أقوى وأدل على الاحتفال بالمعنى وأهميته عند المتكلم فجاء أسلوب القصر في قول الصديق رضي الله عنه: (لَا يَدْعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلَا

---

(١) شروح التلخيص ج٢ ص١٦٦ .

تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ) .

والقصد في الأسلوبين إلى ترتب الثاني وهو المذلة في الأول وعموم البلاء في الثاني على الأول وهو ترك الجهاد وشيوع الفاحشة ، ومن هنا فمقتضى الظاهر أن يأتي النظم على الشرط والجزاء ، فهو لم يقل : (إن تركتم الجهاد في سبيل الله ضربكم الله بالذل ، وإن شاعت فيكم الفاحشة عمكم الله بالبلاء) وذلك لخصوصية أسلوب القصر.

فأسلوب القصر أبلغ ؛ لأن فيه الإيجاز وأيضًا تقرير الكلام وتمكينه في الذهن لدفع ما فيه من إنكار أو شك[1] ، كما أن فيه تأكيد وجوب وقوع المستثنى بعد (إلا) . يقول سيبويه : تقول : ما أتاني إلا زيدٌ، وما لقيتُ إلا زيدًا، وما مررتُ إلا بزيدٍ، تُجري الاسم مجراه إذا قلت : ما أتاني زيدٌ، وما لقيتُ زيدًا، وما مررتُ بزيد، فإنك أدخلت إلا لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ولتنفي ما سواها[2]

فأراد الصديق رضي الله عنه بتعبيره بأسلوب القصر أن يؤكد على وقوع الذل على من يترك الجهاد، فهو العقوبة الواجبة لذلك . ولذا كان القصر أليق بالسياق من أسلوب الشرط .

ثم إن مقتضى الأصل في القصر أن يكون أحد الطرفين صفة والآخر ذاتًا موصوفة ، ولكن الظاهر في النظم في الأسلوبين أن كليهما وصف ، إذ

---

(١) الإيضاح ج٣ ص٥ .

(٢) الكتاب ج٢ ص ٣١٠ المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون . الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

ترك الجهاد ولزوم الذل في الأول كلاهما صفة ، وكذلك الأمر في الثاني على ما هو ظاهر من شيوع الفاحشة وعموم البلاء ، ومن هنا لزم تأويل أحد الطرفين بذات موصوفة ؛ لأن ترك الجهاد يدل على الذات الموصوفة والصفة وكذلك إشاعة الفاحشة.

" كما أنّك إذا قلت: " أسْوَدُ " فقد دلّ على شيئين: على الذات، والسواد الذي استحقّ به أن يكون أسودًا . فهما شيئان : حاملٌ، ومحمولٌ . فالحاملُ الذاتُ، والمحمولُ السوادُ، وكذلك " ضاربٌ " دلّ على الضَّرْب وذاتَ الضارب"(١)

وقد جاءت الألفاظ في النظم مختارة بدقة وعناية فقال: (لا يدع) ، والوَداعُ بِالْفَتْحِ : التَّرْكُ(٢)

ونكر (قوم) للتحقير؛ لأن ترك الجهاد لا يقع إلا ممن اتصف بالحقارة والدناءة ، وعرف (الجهاد) بـ(أل) ؛ لأنه معروف لا ينكر .

وقال: (في سبيل الله) ؛ احترازًا من الرياء والسمعة فالجهاد يكون خالصًا لوجه الله تعالى والذي يخرج في سبيل الله لا يطلب إلا إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

ثم بين الصديق أن ترك الجهاد لا يجلب إلا المذلة وعبر عن ذلك

---

(١) شرح المفصل ج٢ ص٧١ للزمخشري . المؤلف: يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: ٦٤٣هـ) قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

(٢) لسان العرب ج٨ ص ٣٨٤ .

بقوله: (ضربهم الله بالذل)،

والمتأمل للفظ (ضربهم) يجد فيه ما فيه من الشدة والارتطام والألم يقال : ضَرَبَ الجُرْحُ ضَرَباناً وضَرَبه العِرْق ضَرَباناً إذا آلَمَهُ . والضَّارِبُ :المُتَحَرِّك. والمَوْجُ يَضْطَرِبُ أَي يَضْرِبُ بعضُه بَعْضًا[1] وهذا الضرب يكون بالذل ، والذُّلُّ: نَقِيضُ العِزِّ، ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّة وذَلالة ومَذَلَّة، فَهُوَ ذَلِيل... وتَذَلَّلَ لَهُ أَي خَضَعَ . وَفِي أَسماء اللَّهِ تَعَالَى : المُذِلُّ؛ هُوَ الَّذِي يُلْحِق الذُّلَّ بِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَنْفِي عَنْهُ أَنواع الْعِزِّ جَمِيعَهَا[2] فقد صور الذل بشيء حسي يرتطم بهم بقوة فيسبب لهم الألم الشديد ، فهذا الذل يسبب لهم الألم الجسدي والنفسي معا . كما إنه عبر بالمضارع في أول الأمر فقال : (يدع) ثم هنا عبر بالماضي ، وكان مقتضى الأصل أن يقول: (إلا يضربهم الله بالذل) ؛ للإشارة إلى أن هذا الضرب بالذل محقق واقع لا محالة . وفي تعبيره بلفظ الجلالة (إلا ضربهم الله بالذل) وكان مقتضى الأصل أن يقول: (إلا ضربهم بالذل) فوضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التقرير والإيضاح للسامع ، وأن الضرب بالذل هو من فعل الله سبحانه وتعالى فيكون أشد إيلامًا . وكذلك لإلقاء المهابة في قلوبهم والخوف من الله بتكرير ذكر لفظ الجلالة ، فلا يقدمون على ذلك الفعل.

ثم أتبع ذلك بالدعوة إلى التمسك بالفضائل والخلق القويم حتى يستقيم لهم أمر دينهم أيضًا ، ويرفع عنهم البلاء ، فقال: (ولا تشيع

---

(١) لسان العرب ج١ ص٥٤٣ .

(٢) ينظر: لسان العرب ج١١ ص ٢٥٦-٢٥٧ .

الفاحشة .....) وعبر بكلمة تشيع لما فيها من معنى الانتشار والميل والهوى ، " فالشَّوَعُ: انْتِشارُ الشَّعر وتَفَرُّقُه كأَنه شَوْك... وبَوْلٌ شاعٌ : مُنْتَشِرٌ مُتَفَرِّق... وتَشَيَّعَ فِي الشَّيْءِ : اسْتَهلك فِي هَواه . وشَيَّعَ النارَ فِي الحطبِ :أَضْرَمَها"(١) ؛ ولذلك كان التعبير بلفظ (تشيع) أليق بالنظم .

وعبر بكلمة (الفاحشة) ولم يقل: (السوء) مثلا ؛ لأنها تجمع كل قبيح من قول وفعل " فالفُحْش والفَحْشاءُ والفاحِشةُ القبيحُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَجَمْعُهَا الفَواحِشُ.... وَهُوَ كُلُّ مَا يَشتد قُبْحُه مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي؛ قَالَ ابْنُ الأَثير : وَكَثِيرًا مَا تَرِدُ الفاحشةُ بِمَعْنَى الزِّنَا وَيُسَمَّى الزِّنَا فَاحِشَةً، وَقَالَ اللَّه تَعَالَى : ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ ﴾ (٢).... وكلُّ خَصْلة قبيحةٍ، فَهِيَ فاحشةٌ مِنَ الأَقوال والأَفعال"(٣) .

وقال : (في قوم) باستخدام حرف الجر(في) ليفيد تمكن الفاحشة واستقرارها في القوم.

وقال : (إلا عمهم الله بالبلاء) ولم يقل : إلا ابتلاهم الله ؛ لأنه أراد عموم البلاء وشموله لهؤلاء القوم يقال: " أَمر عَمَم : تامٌّ عامٌّ .... وعَمَّهُم الأَمرُ يَعُمُّهم عُموماً : شَمِلهم"(٤) .

وأيضا كرر لفظ الجلالة في هذه العبارة كالسابقة للسبب نفسه .

وعبر بـ(البلاء) ولم يقل (العذاب) مثلا ؛ لأن "البَلاءُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ

---

(١) ينظر: لسان العرب ج٨ ص ١٨٨ وما بعدها .
(٢) النساء آية ١٩ .
(٣) ينظر: لسان العرب ج ٦ص ٤٢٥ .
(٤) ينظر: لسان العرب ج١٢ ص ٤٢٦ .

وَالشَّرِّ . يُقَالُ : ابْتَلَيْته بَلَاءً حَسَنًا وبَلاءً سيِّئاً، وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْلِي العبدَ بَلاءً حَسَنًا ويُبْلِيه بَلَاءً سيِّئاً، نسأَل اللَّهَ تَعَالَى الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، وَالْجَمْعُ البَلايا،... وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (١) " (٢) .

فالصديق رضي الله عنه لين في خطابه وقد ظهر هذا اللين في اختيار مفردات النظم في الخطاب وأساليبه ، فالملاحظ أن الصديق لم يوجه لهم الخطاب المباشر باستخدام ضمائر الخطاب فلم يقل رضي الله عنه : (لا تدعون الجهاد في سبيل الله إلا ضربكم الله بالذل ، ولا شاعت فيكم الفاحشة إلا عمكم الله بالبلاء) كما جاء الخطاب من بداية الخطبة إلى هنا بضمائر الخطاب، ولكنه عدل عن ضمائر الخطاب إلى ضمائر الغيبة حين تكلم عن ترك الجهاد وإصابة الذل ، وعن إشاعة الفاحشة وعموم البلاء ؛ لئلا يخاطبهم بما ينفر ، ولعله أراد أن يشير إلى أن هذه الأفعال لا تقع منهم بل من أقوام غيرهم . فهو يتوسم فيهم الخير ، ويحاول أن يوصل لهم هذا الإحساس عن طريق النظم ، واختيار اللفظ المناسب في مخاطبته إياهم.

ثانيا : **أسلوب الأمر** :

لما وضح أبو بكر رضي الله عنه سياسته في الحكم ، وأرسى القواعد التي سيسير عليها في مستقبله معهم ، أراد أن يشعرهم أن هذه القواعد واجبة التنفيذ من الآن فليس فيها تأجيل أو تراخٍ فلقد دقت ساعة العمل ولذا ختم الخطبة بقوله: (قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله).

---

(١) الأنبياء آية ٣٥ .

(٢) ينظر: لسان العرب ج١٤ ص ٨٤ .

فالأمر (قوموا) جاء على وجه الإلزام فهو واجب التنفيذ فالبداية تكون بأداء حق الله ، ولذا جاء النظم معبرًا بالفعل (قوموا) فلم يقل رضي الله عنه: (هيا أو أسرعوا إلى صلاتكم) لما في القيام من معنى الملازمة والمحافظة والثبات على الأمر والتمسك به ومنه " قوله تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [(١)]؛ أَيْ مُلَازِمًا مُحَافِظًا. وَيَجِيءُ الْقِيَامُ بِمَعْنَى الْوُقُوفِ وَالثَّبَاتِ... وفَسَّرُوا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ :﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ [(٢)]؛ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ : قَامُوا هُنَا بِمَعْنَى وقَفُوا وَثَبَتُوا فِي مَكَانِهِمْ غَيْرَ مُتَقَدِّمِينَ وَلَا متأَخرين، وَمِنْهُ التَّوَقُّف فِي الأَمر وَهُوَ الوقُوف عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُجاوَزة لَهُ.... ويُقَالُ : قَامَ فُلَانٌ عَلَى الشَّيْءِ إِذَا ثَبَتَ عَلَيْهِ وَتَمَسَّكَ بِهِ[(٣)]

ولذا كان الفعل (قوموا) مناسبًا للغرض وموافقًا للنظم في إثبات حق الله تعالى بالمحافظة على الصلاة والثبات عليها والتمسك بها .

وقال: (إلى صلاتكم) ولم يقل: (إلى الصلاة) ؛ لأنها الصلاة المخصوصة لهم والمفروضة عليهم ، لا يصح تركها بأي حال من الأحوال.

وفيه إيحاء بأن الصلاة يعود نفعها عليهم فهي صلاتهم وثوابها ونفعها لهم .

وختم قوله بالدعاء لهم بالرحمة في قوله: (يرحمكم الله) ، وعبر بالفعل المضارع (يرحمكم) ولم يقل (رحمكم الله)؛ لإفادة تجدد نزول

---

(١) آل عمران آية ٧٥ .

(٢) البقرة آية ٢٠ .

(٣) ينظر: لسان العرب ج١٢ ص٤٩٦ وما بعدها .

الرحمات عليهم وحدوثها في كل أوقاتهم.

وهكذا جاء نظم الخطبة كله متماسكا متوافقا في غاية الانسجام فكل لفظة تتناسب مع ما قبلها وتطلب ما بعدها ، كما جاءت كل لفظة في سياقها هي الأنسب والأليق ولو جاءت غيرها في موضعها، لما أدت الغرض المطلوب ولما توافقت مع هذا النظم البديع . كما جاءت الأساليب متناسبة مع إثبات الحقوق المتنوعة ، فكل أسلوب جاء في موضعه المناسب .

الخـــاتمة

الحمد لله المنان ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أهل البيان ، ومن تبعهم بإحسان إلى أن نلقى الديان ... وبعد

فبعد هذه المعايشة للخطبة يتأتى القول بأن هذه الدراسة قد أسفرت عن نتائج متنوعة وهي :

١- خصوصية خطبة تولية سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في معانيها وأساليبها عن غيرها من الخطب التي كانت في ذلك الوقت ، وذلك أنها تمثل خصوصية نفسه رضي الله عنه من تواضع ، وعدم طمع في ولاية أو سلطان ، وإثبات الحقوق لأصحابها وهذا ما اتضح من معاني الخطبة وأساليبها ، فعلى سبيل المثال قوله : (ولست بخيركم) وأيضًا : (إن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني) فهذه الأساليب تدل على تواضعه رضي الله عنه ؛ لأنه يقول هذا مع علمه بخيريته ، وعلمه بإحسان نفسه، وبعده عن الإساءة، ولكن قال هذا من باب التواضع وهضم النفس ، كما أن جملة (وليت عليكم) تدل على عدم طلبه لولاية أو سلطان ، ومما يدل على عزيمته وإصراره على إثبات الحقوق قوله : (الضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق) وهذا على سبيل المثال لا الحصر ، فكل أساليب الخطبة دالة على خصوصية نفسه رضي الله عنه وأرضاه .ينظر ذلك في المطلب الثاني من التمهيد (خصوصية خطب التولية).

٢- نظم الخطبة متماسك مترابط متناسب متعلق بعضه ببعض ، وآخذ بعضه بأعناق بعض ، لا تشذ فيه كلمة أو جملة عن السياق ، فكل

أجزاء الخطبة منسلة من قوله: (وليت عليكم) الجملة الأولى بعد النداء ذلك أن توليته عليهم تستلزم حقوقًا له ، وحقوقًا للرعية ، وحقوقًا لله تعالى .

٣- كما جاء البناء التركيبي للخطبة كلها في المرتبة الأولى من البلاغة ، وذلك أنه عند موازنته بما يحتمله النظم من صور للمعنى متنوعة ، وجد أنه لا يتأتى غيره ، فقد وضع موضعه الأخص والأشكل به .

التوصيات :

أوصي باستكمال دراسة أساليب خطب التولية ومتابعتها خطبة خطبة ، للوصول إلى أمثل المعاني والأساليب التي يمكن أن يستفاد بها في العصر الحديث في مثل تلك المواقف ، ثم عمل موازنة بينها .

هذا وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، والحمد لله أولا وآخرًا .

فهرس المصادر والمراجع

📖 أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين . المؤلف: محمد رضا (المتوفى: ١٣٦٩هـ) المحقق: الشيخ خليل شيحا . الناشر: دار الكتاب العربي الطبعة: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م .

📖 أصول الإنشاء والخطابة . المؤلف: محمد الطاهر بن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣ هـ) المحقق: ياسر بن حامد المطيري . الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ .

📖 الأعلام . المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) الناشر: دار العلم للملايين . الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م .

📖 الإيضاح في علوم البلاغة . المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ) المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي . الناشر: دار الجيل – بيروت الطبعة: الثالثة .

📖 البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي المتوفى سنة (٧٩٤ هـ) علق عليه مصطفى عبد القادر عطا . دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤ م .

📖 البلاغة العربية . المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ) الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

📖 البيان والتبيين . المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣ هـ .

📖 التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» . المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

📖 تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق المؤلف: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي الحنفي (المتوفى: ٧٣٩هـ) الناشر: مكتبة دار التراث – المدينة المنورة .

📖 تهذيب التهذيب . المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند الطبعة: الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ .

📖 جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة . المؤلف: أحمد زكي صفوت الناشر: المكتبة العلمية بيروت – لبنان .

📖 جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب . المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ) أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت .

📖 الخطابة عند العرب . المؤلف: محمد الخضر حسين (المتوفى: ١٣٧٧ هـ) المحقق: ياسر بن حامد المطيري . الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى،

١٤٣٣ هـ .

📖 دلائل الإعجاز في علم المعاني ـ المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

📖 الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ) المحقق: عمر عبد السلام السلامي ـ الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

📖 السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: مصطفى عبد الواحد الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان عام النشر: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٦ م .

📖 شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ـ المؤلف : ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى : ٧٦٩هـ) المحقق : محمد محي الدين عبد الحميد الناشر : دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .

📖 شرح المفصل للزمخشري ـ المؤلف: يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: ٦٤٣هـ) قدم له: الدكتور إميل

بديع يعقوب . الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان . الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م .

📖 شروح التلخيص وهو مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي وقد وضع بالهامش كتاب الإيضاح لمؤلف التلخيص وحاشية الدسوقي على شرح السعد . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان.

📖 الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه (المتوفى: ٧٤٥هـ) الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ .

📖 عبقرية الصديق . المؤلف عباس محمود العقاد . ط٦ سنة ٢٠٠٥ . شركة نهضة مصر للطباعة والنشر .

📖 عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح المؤلف: أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ) المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي . الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .

📖 الكتاب . المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون . الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

📖 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر:

دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

📖 لسان العرب . المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ .

📖 اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية» المؤلف: موسى بن راشد العازمي . تقريظ: الدكتور محمد رواس قلعه جي، الشيخ عثمان الخميس . الناشر: المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، الكويت الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م .

📖 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . المؤلف: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: ٦٣٧هـ) المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ـ الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة .

📖 مفتاح العلوم ـ المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ) ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور . الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ـ الطبعة: الثانية ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

📖 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ) المحقق: إحسان عباس ـ الناشر: دار صادر ـ بيروت ـ الجزء: ٣ .